الفصل التاسع

مصابيح الهدى أيام الرشيد

- أولًا : هارون الرشيد مع الإمام مالك.
- ثانيًا : هارون الرشيد مع عبد الله بن المبارك.
- ثالثًا : هارون الرشيد مع القاضي أبي يوسف.
- رابعًا : هارون الرشيد مع الفضيل بن عياض .
- خامسًا : هارون الرشيد مع الإمام الشافعي.

obeikandl.com

”أَنَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْتَ الْقُدْوَةُ، فَلَا يَدْخُلْ عَلَيَّ أَحَدٌ مِنَ الْفُقَهَاءِ قَبْلَكَ“.

هارون أمير المؤمنين للإمام الشافعي.

أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء (9/ 82 – 84)

obeikandl.com

إذا كان كل إنسان يعرف بمن يصاحب ويجالس، فإن هـارون الرشيد ما كان ليصاحب غير أرباب العلم والفقه والدين، يصحبهم في حلَّه وترحاله، يجالسهم ويستشيرهم وينزل على رأيهم، يسافر إليهم ليأخذ عنهم العلم والدين، ويتواضع لعلمهم وينكسر لكلامهم، ويبكي لمواعظهم، ويغمرهم من عطفه ورعايته.

إن هـذه المواقف الخالدة لهارون الرشيد مع هـؤلاء الكوكبة من أجلِّ علماء الدين والدنيا، لتعطينا صورًا حقيقة عن حياة الرشيد، ليست حياة المجون والخلاعة التي أرادوا أن يشوهوا الرشيد بها كذبًا، بل حياة المجاهد والعالم والزاهد والغيور على دينه. وهذه ترجمة بعض من أعلام السلف الذين كان لهم تأثير كبير في حياة الناس، وقد اقتصرنا على خمسة ترجمات، كان لهم صلة مباشرة بهارون الرشيد ورأي سديد في خلافته.

غير أننا سنذكر في عجالة أشهر من توفي في خلافة الرشيد من العلماء والفقهاء وشاركوا في صناعة صورة الخلافة وشخصية الخليفة، كالتالي:

عبد الله بن لهيعة: مؤرخ ومحدث مصري، ت 174هـ. الليث بن سعد، إمام مصر وفقيهها، ت 175هـ. الخليل بن أحمد الفراهيدي، من علماء العربية في البصرة، من مؤلفاته: (كتاب العين) ت 175هـ. شريك النخعي القاضي، ت 177هـ. الإمام مالك بن أنس، إمام دار الهجرة، ت 179هـ. حماد بن زيد، المحدث شيخ العراق في عصره ، ت 179هـ. سيبويه البصري، إمام النحو وحجة العرب، ت 180هـ. خلف الأحمر، معلم الأصمعي ومعلم البصرة، ت180هـ. الإمام المجاهد عبد الله بن المبارك، ت181هـ. إسماعيل بن عياش المحدث، ت 181هـ. يونس بن حبيب البصري، إمام نحاة البصرة في زمانه، ت 182هـ. قاضي القضاة أبو يوسف، صاحب أبي حنيفة

وكتاب الخراج، ت 182هـ. ابن السماك الواعظ، ت 183هـ. الفضيل بن عياض، الواعظ الصالح، ت 187هـ. جرير بن عبد الحميد الضبي، ت 188هـ. الكسائي، إمام الكوفيين في النحو والصرف، ومؤدب الأمين والمأمون، ت 189هـ. محمد بن الحسن الشيباني، قاضي الرشيد وشيخ الشافعي، ت 189هـ. عبد الرحمن بن القاسم، من أصحاب الإمام مالك، ت 191هـ. أبو بكر بن عياش، كان من أرباب الحديث والعلماء المشاهير، وهو أحد راوي القراءات عن عاصم، ت 193هـ. حفص بن غياث الكوفي، قاضي الكوفة، ت 194هـ. أبو معاوية الضرير، تلميذ الأعمش، ت 195هـ. وكيع بن الجراح، القاصي المحدث، ت 197هـ. الإمام ورش، صاحب القراءة، ت 197هـ. سفيان بن عيينة، محدِّث الحرم المكي، ت 198هـ. عبد الرحمن بن مهدي، من كبار حفاظ الحديث، ت 198هـ. يحيى بن سعيد القطان المحدث، أول مؤلف مستقل في أسماء الرواة الضعفاء، ت 198هـ. الإمام الشافعي، مجدد الإسلام، ت 204هـ. الواقدي، إمام المغازي والسير، ت 207هـ. أبو عبيدة معمر بن المثنى، عالم اللغة والنحو، ت 209هـ. عبد الرزاق بن همام الصنعاني، المحدث الكبير، صاحب المصنف، ت 211هـ. أبو العتاهية الشاعر الواعظ، ت 211هـ. أبو زيد الأنصاري، كان من أوثق الرواة، ت 214هـ. الأصمعي، شيخ اللغة والأدب، ت 215هـ.

والآن إليك الخمس ترجمات اخترناها لك، ممن كان لهم عظيم الأثر في حياة الرشيد وشخصيته وسياسته[1]:

(1) ترتيب الأسماء حسب تواريخ وفياتهم.

أولًا: هارون الرشيد
مع الإمام مالك (إمام دار الهجرة)

الإمام أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك الحميري الأصبحي المدني (93هـ - 179هـ)، أحد الأئمة الأربعة العظام عند المسلمين، طلب العلم وهو ابن بضع عشرة سنة، وتأهل للفتيا، وجلس للإفادة، وله إحدى وعشرون سنة، وحدث عنه جماعة وهو حيٌّ شابٌّ طريٌّ، وقصده طلبة العلم من الآفاق في آخر دولة أبي جعفر المنصور، وما بعد ذلك، وازدحموا عليه في خلافة الرشيد، وإلى أن مات. قال عنه سفيان بن عيينة: "مالك عالم أهل الحجاز، وهو حجة زمانه". وقال الشافعي: "إذا ذكر العلماء فمالك النجم". وقال الشافعي كذلك: "لَوْلا مَالِكٌ، وَابْنُ عُيَيْنَةَ لَذَهَبَ عِلْمُ الْحِجَازِ، وَمَا فِي الأَرْضِ كِتَابٌ فِي الْعِلْمِ أَكْثَرَ صَوَابًا مِنَ الْمُوَطَّأِ".

ولم تكن صلة مالك بن أنس رحمه الله بهارون الرشيد حديثة العهد بخلافته، بل إن الإمام مالك يعدُّ في منزلة أستاذ الرشيد ومعلمه ومؤدبه، فقد قَدِم المهديُّ المدينة، فبعث إلى مالك، فأتاه، فقال لولديه هـارون وموسى: اسمعا منه. فبعث إليه، فلم يجبهما، فأعلما المهدي، فكلمه، فقال: يا أمير المؤمنين! العلم يؤتى أهله. فقال: صدق مالك، صيرا إليه. فلما صارا إليه، قال له مؤدبهما: اقرأ علينا. فقال: إن أهل المدينة يقرؤون على العالم، كما يقرأ الصبيان على المعلم، فإذا أخطؤوا، أفتاهم. فرجعوا إلى المهدي، فبعث إلى مالك، فكلمه، فقال: سمعت ابن شهاب يقول: جمعنا هـذا العلم في الروضة من رجال، وهم يا أمير المؤمنين: سعيد بن المسيب، وأبو سلمة، وعروة، والقاسم، وسالم، وخارجة بن زيد، وسليمان بن يسار، ونافع، وعبد الرحمن بن هـرمز، ومن بعدهم: أبو الزناد، وربيعة، ويحيى

بن سعيد، وابن شهاب، كل هـؤلاء يقرأ عليهم، ولا يقرؤون. فقال المهدي: في هـؤلاء قدوة، صيروا إليه، فاقرؤوا عليه، ففعلوا[1].

فالإمام مالك معلم هـارون الرشيد في الفقه والحديث، وقد عاش الإمام مالك بن أنس فترة من الزمن في خلافة هـارون الرشيد، حيث توفي رحمه الله سنة 179هـ، وبقيت العلاقة بينهما علاقة محبة وود، يملأها الإجلال وهيبة العلم والعلماء، وكان الرشيد إذا زار المدينة يحرص على زيارة أستاذه ويجلس بين يديه تواضعًا للعلم وأهله، من ذلك ما روي عن مالك بن أنس قال: "وجه إليَّ هـارون الرشيد يسألني أن أحدثه، فقلت: يا أمير المؤمنين إن العلم يؤتى ولا يأتي، قال: فصار إلى منزلي، فاستند معي إلى الجدار، فقلت: يا أمير المؤمنين إن من إجلال الله إجلال ذي الشيبة المسلم، قال: فجلس بين يدي، قال: فقال لي بعد مدة، يا أبا عبد الله: تواضعنا لعلمك فانتفعنا به، وتواضع لنا علم سفيان بن عيينة، فلم ننتفع به"[2].

وكان الرشيد دائمًا ما يرسل بالأسئلة إلى مالك يستشيره في أمور الدين والدنيا، حتى أن الرشيد أراد حمل الناس على موطأ مالك، فيكون مذهب الخلافة والدولة، غير أن الإمام مالك رفض ذلك العرض، فعن ابن عبد الحكم قال: سمعت مالك بن أنس يقول: " سمعت مالكًا يقول: شاورني هـارون الرشيد في ثلاثة: في أن يعلق الموطأ في الكعبة، ويحمل الناس على ما فيه، وفي أن ينقض منبر رسول الله ﷺ ويجعله من ذهب وفضة وجوهر، وفي أن يقدم نافعًا إمامًا في مسجد النبي ﷺ.

فقلت: أما تعليق الموطأ، فإن الصحابة اختلفوا في الفروع، وتفرقوا، وكل عند نفسه مصيب، وأما نقض المنبر، فلا أرى أن يحرم الناس أثر رسول الله ﷺ، وأما تَقْدِمَتُكَ نافعًا، فإنه إمام في القراءة، لا يؤمن أن تبدر منه بادرة في المحراب، فتحفظ

(1) الذهبي: سير أعلام النبلاء، 8/ 48 – 64. بتصرف.

(2) أبو هلال العسكري: الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه، 1/ 84.

عليه. فقال الرشيد: وفقك الله يا أبا عبد الله»[1].

وقال هـارون الرشيد مرة لمالك: «كيف كانت منزلة أبي بكر وعمر من رسول الله ﷺ؟»، فقال مالك: «كقرب قبريهما من قبره بعد وفاته»، فقال الرشيد: «شفيتني يا مالك»[2]. وعن النضر بن شُمَيْلٍ، قال: سمعتُ هـارون الرشيد يقول: «ما رأيت في العلماء أَهْيَبَ من مالك، ولا أورع من الفضيل»[3].

(1) أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 6/ 332. الذهبي: سير أعلام النبلاء، 8/ 98. وقال الذهبي: هذا إسناد حسن، لكن لعل الراوي وهم في قوله: هارون؛ لأن نافعًا مات قبل خلافة هارون (توفي سنة 169 هـ).

(2) ابن عبد الهادي الصالحي: محض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، 1/ 238.

(3) الذهبي: تاريخ الإسلام، 4/ 944.

obeikandl.com

ثانيًا: هارون الرشيد
مع عبد الله بن المبارك (فقيه المشرق والمغرب)

هو الإمام، شيخ الإسلام، عالم زمانه، وأمير الأتقياء في وقته، أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك الحنظلي مولاهم، التركي، المروزي، الحافظ، الغازي، أحد الأعلام، أبوه تركي وأمه خوارزمية (118هـ - 181هـ)، طلب العلم وهو ابن عشرين سنة. فأقدم شيخ لقيه:هـو الربيع بن أنس الخراساني، تحيل ودخل إليه إلى السجن، فسمع منه نحوًا من أربعين حديثًا، ثم ارتحل في سنة إحدى وأربعين ومائة، وأخذ عن بقايا التابعين، وأكثر من الترحال والتطواف، وإلى أن مات في طلب العلم، وفي الغزو، وفي التجارة، والإنفاق على الإخوان في الله، وتجهيزهم معه إلى الحج. ارتحل ابن المبارك إلى: الحرمين، والشام، ومصر، والعراق، والجزيرة، وخراسان، وحدث بأماكن. وكان من الربانيين في العلم، الموصوفين بالحفظ، ومن المذكورين بالزهد.

سمع من: هـشام بن عروة، والأعمش، ويحيى بن سعيد الأنصاري، وموسى بن عقبة، وحيوة بن شريح المصري، والأوزاعي، وأبي حنيفة، وابن جريج، ومعمر، والثوري، وشعبة، وابن أبي ذئب، ومالك، والليث، وابن لهيعة وابن عيينة، وخلق كثير.

وحدَّث عنه: معمر، والثوري، وأبو إسحاق الفزاري، وطائفة من شيوخه، وعبد الرحمن بن مهدي، وطائفة من أقرانه، وعبد الرزاق بن هـمام الصنعاني، والقطان، وابن معين، وأبو بكر بن أبي شيبة، وأمم يتعذر إحصاؤهم، ويشق استقصاؤهم.

وحديثه حجة بالإجماع، وهو في المسانيد والأصول. قال علي بن صدقة، سمعت شعيب بن حرب، قال: "ما لقي ابن المبارك رجلًا إلا وابن المبارك أفضل

منه". وعنه أيضًا قال: سمعت أبا أسامة يقول: "ابن المبارك في المحدثين مثل أمير المؤمنين في الناس". وقال إسماعيل بن عياش: "ما على وجه الأرض مثل ابن المبارك، ولا أعلم أن الله خلق خصلة من خصال الخير، إلا وقد جعلها في عبد الله بن المبارك". وقال الفضيل بن عياض يومًا لابن المبارك: "أنت تأمرنا بالزهد والتقلل والبلغة، ونراك تأتي بالبضائع، كيف ذا؟"، قال: "يا أبا علي، إنما أفعل ذا لأصون وجهي، وأكرم عرضي، وأستعين به على طاعة ربي". قال: "يا ابن المبارك ما أحسن ذا إن تم ذا". قال ابن معين: "كان عبد الله رحمه الله كيسًا، متثبتًا، ثقة، وكان عالمًا، صحيح الحديث، وكانت كتبه التي يحدث بها عشرين ألفًا أو واحدًا وعشرين ألفًا". وقال سفيان بن عيينة: " نظرت في أمر الصحابة وأمر ابن المبارك، فما رأيت لهم عليه فضلًا إلا بصحبتهم النَّبِيّ ﷺ وغزوهم معه"[1].

تلك كانت منزلة عبد الله بن المبارك بين العلماء والناس، حفظها له هـارون الرشيد، فكان يجلُّه ويعظمه، ويحفظ له مكانته وعلمه، خاصة في علوم الحديث والعلل والرجال، ولقد عبَّر عن ذلك الرشيد عندما جيء له بأحد الزنادقة ليقتله، فأمر بضرب عنقه، فقال له الزنديق: لِمَ تضرب عنقي؟ قال له: أريح العباد منك، قال: فأين أنت من ألف حديث وضعتها على رسول الله ﷺ كلها ما فيها حرف نطق به؟ قال الرشيد: فأين أنت يا عدو الله من أبي إسحاق الفزاري وعبد الله بن المبارك ينخلانها فيخرجانها حرفًا حرفًا؟[2].

وكان أول لقاء بين الرشيد وعبد الله بن المبارك في الرقة، فقد روى الخطيب البغدادي بسنده عن أشعث بن شعبة المصيصي، قال: قدم هـارون الرشيد أمير المؤمنين الرقة، فانجفل الناس خلف عبد اللَّه بن المبارك، وتقطعت النعال،

(1) انظر أخبار ابن المبارك في: الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 11/ 388 – 409. الذهبي: سير أعلام النبلاء، 8/ 378 – 421.

(2) ابن عساكر: تاريخ دمشق، 7/ 127.

وارتفعت الغبرة، فأشرقت أم ولد لأمير المؤمنين من برج من قصر الخشب، فلما رأت الناس، قَالت: ما هـذا؟ قالوا: عالم من أهل خراسان قدم الرقة، يقال له: عبد اللَّه بن المبارك، فقالت:هـذا واللَّه الملك لا ملك هـارون الذي لا يجمع الناس إلا بشرط وأعوان[1].

ولما زار الرشيد ابن المبارك في بيته، تناقشا معًا مستقبل العلم والعلماء في دولة الخلافة، وانتهى الأمر بقرارات تشجيعية أصدرها الرشيد بطلب من ابن المبارك، أحدثت تطورًا علميًا وازدهارًا فكريًا كبيرًا، حتى قال ابن المبارك: "فما رأيت عالمًا ولا قارئًا للقرآن ولا سابقًا للخيرات ولا حافظًا للمحرمات في أيام بعد أيام رسول الله ﷺ وأيام الخلفاء والصحابة أكثر منهم في زمن الرشيد وأيامه"[2].

وظلت علاقة ابن المبارك بالرشيد يملؤها الود والاحترام والتقدير، ولمَّا بلغ أمير المؤمنين هـارون موت ابن المبارك بِهْيت قال: "مات سيد العلماء"، ثم قال: "إنا لله وإنا إليه راجعون، يا فضل ائذن للناس يعزونا في ابن المبارك، أليس هـو القائل:

اللهُ يَدْفَعُ بِالسُّلْطَانِ مُعْضِلَةً عَنْ دِينِنَا، رَحْمَةً مِنْهُ وَرِضْوَانَـا

لَوْلَا الْأَئِمَّةُ لَمْ يَأْمَنْ لَنَا سُبُلٌ وَكَـانَ أَضْعَفُنَا نَهْبًـا لِأَقْوَانَـا

ثم قال الرشيد: "من سمع هـذا القول، مِنْ مِثْلِ ابن المبارك مع فضله وزهده وَعَظْمِهِ في صدور العامة، ولا يعرف حقنا"[3].

(1) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 11/ 393.

(2) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، 1/ 300 – 301.

(3) أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 8/ 164. الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 11/ 401. الذهبي: سير أعلام النبلاء، 8/ 414. هيت: مدينة على الفرات فوق الأنبار من أعمال العراق، لكنها في بر الشام، والأنبار في بر بغداد، والفرات يفصل بينهما، ودجلة تفصل بين الأنبار وبغداد، وبها قبر ابن المبارك.

ثالثًا: هارون الرشيد
مع القاضي أبي يوسف (قاضي القضاة)

هو الإمام، المجتهد، العلامة، المحدث، قاضي القضاة، أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن خُنَيْس بن سعد بن بجير بن معاوية الأنصاري، الكوفي (113هـ - 182هـ). وسعد بن بجير: له صحبة، وهو سعد بن حَبْتَةَ، وهي أمه، وهو بجلي، من حلفاء الأنصار، عرض على النبي ﷺ يوم أحد فاستصغره، وشهد الخندق، وغيرها. جاءت به أمه حبتة بنت مالك إلى رسول الله ﷺ فَدَعَا لَهُ وبرك عليه وَمسح على رَأسه، فكان حفيده أبو يوسف من بركات النبي ﷺ.

حدَّث عن: هشام بن عروة، ويحيى بن سعيد الأنصاري، وعطاء بن السائب، وأبي إسحاق الشيباني، وعبيد الله بن عمر، والأعمش، وأبي حنيفة، ولزمه، وتفقه به، وهو أنبل تلامذته، وأعلمهم، تخرج به أئمة: كمحمد بن الحسن، ومعلى بن منصور، وهلال الرأي، وابن سماعة، وعدة. وحدَّث عنه: يحيى بن معين، وأحمد بن حنبل، وعلي بن الجعد، وأسد بن الفرات، وأحمد بن منيع، وعلي بن مسلم الطوسي، وعمرو بن أبي عمرو الحراني، وعمرو الناقد، وعدد كثير.

وكان أبوه فقيرًا، له حانوت ضعيف، فكان أبو حنيفة يتعاهد أبا يوسف بالدراهم، مائة بعد مائة. وعن محمد بن الحسن، قال: مرض أبو يوسف، فعاده أبو حنيفة، فلما خرج، قال: «إِنْ يَمُتْ هـذَا الْفَتَى فَهُوَ أَعْلَمُ مَنْ عَلَيْهَا، وَأَوْمَأَ إِلَى الأَرْضِ».

ويعدُّ أبو يوسف أنبل تلامذة أبي حنيفة، وأول من وضع الكتب فِي أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة، وأملى المسائل ونشرها، وبث علم أبي حنيفة فِي أقطار الأرض، وكان يقول: «ما كَانَ فِي الدُّنْيَا أحب إليّ من مجلس أجلسه مَعَ أبي حنيفة،

وابن أبي ليلى، فإني ما رأيتُ فقيهًا أفقه من أبي حنيفة، ولا قاضيًا خيرًا من ابن أبي ليلى». وفي ذلك يقول عمار بن أبي مالك: «ما كَانَ فيهم مثل أبي يوسف، لولا أَبُو يوسف ما ذكر أَبُو حنيفة، ولا ابن أبي ليلى، ولكنه هـوَ نشرَ قولهما، وبث علمهما». وعن هـلال بن يحيى، قال: «كان أبو يوسف يحفظ التفسير والمغازي وأيام العرب، وكان أقل علومه الفقه، ولم يكن في أصحاب أبي حنيفة مثل أبي يوسف «.

وكان قد سكن بغداد وتولى القضاء بها لثلاثة من الخلفاء: المهدي وابنه الهادي ثم هـارون الرشيد، وكان الرشيد يكرمه ويجله، وكان عنده حظيًا مكينًا، وهو أول من دعي بقاضي القضاة. ولم يختلف يحيى بن معين وأحمد بن حنبل وعلي بن المديني في ثقته في النقل. قال يحيى بن معين: «ما رأيت في أصحاب الرأي أثبت في الحديث، ولا أحفظ، ولا أصح رواية من أبي يوسف». قال ابن عدي: لا بأس به. وقال النسائي في (طبقات الحنفية) : وأبو يوسف ثقة. وقال أبو حاتم: يكتب حديثه.

وحكي أن والد أبي يوسف مات وخلف أَبَا يوسف طفلًا صغيرًا، وأنّ أمه هـيَ التي أنكرت عَلَيْهِ حُضوره حلقة أبي حنيفة، فعن علي بن الجعد قال: قال أبو يوسف القاضي: تُوُفِّيَ أبي إِبْرَاهِيم بْن حبيب وخلَّفني صغيرًا فِي حجر أمي، فأسلمتني إلى قصَّار أخدمه، فكنتُ أدع القصار وأمرُّ إلى حلقة أبي حنيفة فأجلس أستمع، فكانت أمي تجيء خلفي إلى الحلقة، فتأخذ بيدي وتذهب بي إلى القصار، وكان أَبُو حنيفة يعنى بي لما يرى من حضوري وحرصي عَلَى التعلم، فلما كثر ذَلِكَ عَلَى أمي وطال عليها هـربي، قَالَتْ لأبي حنيفة: ما لِهذا الصبي فسادٌ غيرك، هـذا صبي يتيم لا شيء لَهُ، وإنما أطعمه من مغزلي، وآمل أن يكسب دانقًا يعود بِهِ عَلَى نفسه، فقال لَهَا أَبُو حنيفة: مُري يا رعناء (حمقاء) هـذا هـوَ ذا يتعلم أكل الفالوذج بدهن الفستق، فانصرفت عَنْهُ، وقالت لَهُ: أنت شيخٌ قد خرفت وذهب عقلك.

ثُمَّ لزمته فنفعني الله بالعلم، ورفعني حتى تقلدت القضاء، وكنت أجالس

الرشيد وآكل معه عَلَى مائدته، فلما كَانَ فِي بعض الأيام قدَّم إليَّ هـارون فالوذجة، فقال لي هـارون: يا يعقوب كل منه فليس فِي كل يوم يُعمل لنا مثلها، فقلتُ: وما هـذه يا أمير المؤمنين؟ فقال: هـذه فالوذجة بدهن الفستق، فضحكتُ، فقال لي: مم ضحكت؟ فقلتُ: خيرًا، أبقى الله أمير المؤمنين، قَالَ: لتخبرني وألحّ عليَّ، فخبرته بالقصة من أولها إلى آخرها، فعجب من ذَلِكَ، وقال الرشيد: «لعمري إن العلم ليرفعُ، وينفع دينًا ودنيا، وترحم عَلَى أبي حنيفة، وقال: كَانَ ينظرُ بعين عقله ما لا يراهُ بعين رأسه».

وكان أبو يوسف يقول: «العلمُ شيء لا يُعطيك بعضه حتى تُعطيه كُلَّك، وأنت إذا أعطيته كُلَّك من إعطائه البعض عَلَى غَرَرٍ». ويقول: «من قَالَ القرآن مخلوق فحرام كلامه، وفرضٌ مباينته». وقد رُفع إلى هـارون الرشيد زنديقٌ، فدعا أَبَا يوسف يكلمه، فقال لَهُ هـارون: «كلمه وناظره»، فقال لَهُ: «يا أمير المؤمنين ادع بالسيف والنطع، وأعرض عَلَيْهِ الْإِسْلَام فإن أسلم وإلا فاضرب عُنقه، هـذا لا يناظر، وقد ألحد فِي الْإِسْلَام».

وقال بكار بن قتيبة: سمعت أبا الوليد، قال: «لما قدم أبو يوسف البصرة مع الرشيد، اجتمع الفقهاء والمحدثون على بابه، فأشرف عليهم، وقال: أنا من الفريقين جميعًا، ولا أقدم فرقة على فرقة». قال: «وكان قاضي الآفاق، ووزير الرشيد، وزميله في حجه».

قال ابن كثير: «وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ لُقِّبَ بِقَاضِي الْقُضَاةِ، وَكَانَ يُقَالُ لَهُ: قَاضِي قُضَاةِ الدُّنْيَا. لِأَنَّهُ كَانَ يَسْتَنِيبُ فِي سَائِرِ الْأَقَالِيمِ الَّتِي يَحْكُمُ فِيهَا الْخَلِيفَةُ..، وَقَدْ كَانَ يَحْضُرُ فِي مَجْلِسِ حُكْمِهِ الْعُلَمَاءُ عَلَى طَبَقَاتِهِمْ، حَتَّى إِنَّ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ كَانَ شَابًّا وَكَانَ يَحْضُرُ مَجْلِسَهُ فِي أَثْنَاءِ الناس فيتناظرون ويتباحثون، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَحْكُمُ وَيُصَنِّفُ أَيْضًا».

وعن بشر بْن غياث المريسي، قَالَ: سمعتُ أَبَا يوسف، يَقُولُ: صحبتُ أَبَا

حنيفة سبع عشرة سنة، ثُمَّ قد انصبَّت عليَّ الدُّنْيَا سبع عشرة سنة، فما أظن أجلي إلا وقد قَرُب، قَالَ: فما كَانَ إلا شهورًا حتى مات

.قال رحمه الله في مرضه الذي مات فيه: « اللَّهُمَّ إنك تعلم أني لم أطأ فرجًا حرامًا قط وأنا أعلم، اللَّهُمَّ إنك تعلم أني لم آكل درهمًا حرامًا قط وأنا أعلم «، وقال في اليوم الذي مات فيه: « اللَّهُمَّ إنك تعلمُ أني لم أجر فِي حكم حكمت بِهِ بين عبادك متعمدًا، ولقد اجتهدت فِي الحكم بِما وافق كتابك وسنة نبيك». وقد توفي رحمه الله في بغداد يوم الخميس، خامس ربيع الأول، سنة 182هـ[1].

وكان القاضي أبو يوسف رحمه الله يتحرى العدل ولا يخاف في الله لومة لائم، فقد خُوصم أمير المؤمنين موسى الهادي إلى أبي يوسف فِي بُستانه فكان الحكم فِي الظاهر لأمير المؤمنين، وكان الأمر على خلاف ذلك. فقال أمير المؤمنين لأبي يوسف: «ما صنعت فِي الأمر الَّذِي يُتنازع إليك فِيهِ؟»، قال: «خصم أمير المؤمنين يسألني أن أُحَلِّفَ أمير المؤمنين أن شهوده شَهِدوا عَلَى حق»، فقال له موسى: «وترى ذَلِكَ؟»، قال: «قد كَانَ ابن أبي ليلى يراهُ»، قَالَ: «فاردد البستان عَلَيْهِ». وإنّما احتال عليه أبو يوسف لعلمه أن الهادي لا يحلف[2].

وكان هـارون الرشيد يبالغ في إجلاله، لما بلغ أبو يوسف من رئاسة العلم ما لا مزيد عليه. روى ثعلب أن الرشيد قال لأبي يوسف: بلغني أنك تقول: إن هـؤلاء الذين يشهدون عندك وتقبل أقوالهم متصنعة، فقال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: وكيف ذاك؟ قال: لأن من صح ستره وخلصت أمانته لم يعرفنا ولم نعرفه، ومن ظهر أمره وانكشف خبره لم يأتنا ولم نقبله، وبقيت هـذه الطبقة، وهم هـؤلاء

(1) انظر أخبار القاضي أبي يوسف في: الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 16/ 359 – 383. ابن خلكان: وفيات الأعيان، 6/ 378 – 390. الذهبي: سير أعلام النبلاء، 8/ 535 – 539. ابن كثير: البداية والنهاية، 13/ 615 – 620.

(2) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 16/ 367 – 368.

المتصنعة الذين أظهروا الستر وأبطنوا غيره، فتبسم الرشيد وقال: صدقت[1].

ولما ولَّى هـارون الرشيد قاضيه أبو يوسف منصب قاضي القضاة، وأسند إليه تعيين القضاة والإشراف عليهم في المشرق والمغرب أمره أن يكتب له كتابًا بمثابة منهجٍ اقتصاديٍ تسير عليه الدولة في جباية الخراج بما لا يخالف كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، فوضع له كتاب الخراج، وقدَّم له فيه بنصيحة بليغة وموعظة شديدة لهارون الرشيد خليفة المسلمين، وقد دلَّت تلك الموعظة على علم أبي يوسف وشدَّته في الحق وفقهه في الدين، كما دلَّت على توقير الرشيد للعلماء ونزوله على رأيهم ومشورتهم، وقبوله لنصيحة الفقهاء من حوله، واتساع صدره لهم، وحرصه رحمه الله على تطبيق شرع الله في دولته.

وهذا نص نصيحة قاضي القضاة أبي يوسف لأمير المؤمنين هارون الرشيد، يقول:

«يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ اللَّهَ - وَلَهُ الْحَمْدُ - قَدْ قَلَّدَكَ أَمْرًا عَظِيمًا: ثَوَابُهُ أَعْظَمُ الثَّوَابِ، وَعِقَابُهُ أَشَدُّ الْعِقَابِ؛ قَلَّدَكَ أَمْرَ هـذِهِ الأُمَّةِ فَأَصْبَحْتَ وَأَمْسَيْتَ وَأَنْتَ تَبْنِي لِخَلْقٍ كَثِيرٍ قَدِ اسْتَرْعَاكَهُمُ اللَّهُ وَائْتَمَنَكَ عَلَيْهِمْ وَابْتَلاكَ بِهِمْ وَوَلاكَ أَمْرَهُمْ، وَلَيْسَ يَلْبَثُ الْبُنْيَانُ إِذَا أُسِّسَ عَلَى غَيْرِ التَّقْوَى أَنْ يَأْتِيَهُ اللَّهُ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَيَهْدِمَهُ عَلَى مَنْ بَنَاهُ، وَأَعَانَ عَلَيْهِ.

- فَلا تُضَيِّعَنَّ مَا قَلَّدَكَ اللَّهُ مِنْ أَمْرِ هـذِهِ الأُمَّةِ وَالرَّعِيَّةِ، فَإِنَّ الْقُوَّةَ فِي الْعَمَلِ بِإِذْنِ اللَّهِ.

- لَا تُؤَخِّرْ عَمَلَ الْيَوْمِ إِلَى غَدٍ فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ أَضَعْتَ. إِنَّ الأَجَلَ دُونَ الأَمَلِ، فَبَادِرِ الأَجَلَ بِالْعَمَلِ، فَإِنَّهُ لَا عَمَلَ بَعْدَ الأَجَلِ. إِنَّ الرُّعَاةَ مُؤَدُّونَ إِلَى رَبِّهِمْ مَا يُؤَدِّي الرَّاعِي إِلَى رَبِّهِ. فَأَقِمِ الْحَقَّ فِيمَا وَلاكَ اللَّهُ وَقَلَّدَكَ وَلَوْ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ؛ فَإِنَّ أَسْعَدَ الرُّعَاةِ عِنْدَ الله يَوْم الْقِيَامَةِ رَاعٍ سَعِدَتْ بِهِ رَعِيَّتُهُ، وَلا تَزِغْ فَتَزِيغَ رَعِيَّتُكَ، وَإِيَّاكَ الْأَمر بِالْهَوَى وَالأَخْذَ بِالْغَضَبِ.

(1) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 6/ 387.

– وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى أَمْرَيْنِ أَحَدُهُمَا لِلآخِرَةِ وَالآخَرُ لِلدُّنْيَا، فَاخْتَرْ أَمْرَ الآخِرَةِ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الآخِرَةَ تَبْقَى وَالدُّنْيَا تَفْنَى.

– وَكُنْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ عَلَى حَذَرٍ، وَاجْعَلِ النَّاسَ عِنْدَكَ فِي أَمْرِ اللَّهِ سَوَاءً: الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ، وَلا تَخَفْ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لائِمٍ.

– وَاحْذَرْ فَإِنَّ الْحَذَرَ بِالْقَلْبِ وَلَيْسَ بِاللِّسَانِ، وَاتَّقِ اللَّهَ فَإِنَّمَا التَّقْوَى بِالتَّوَقِّي، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَقِهْ.

– وَاعْمَلْ لأَجَلٍ مَفْضُوضٍ، وَسَبِيلٍ مَسْلُوكٍ، وَطَرِيقٍ مَأْخُوذٍ، وَعَمَلٍ مَحْفُوظٍ، وَمَنْهَلٍ مَوْرُودٍ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ الْمَوْرِدُ الْحَقُّ وَالْمَوْقِفُ الأَعْظَمُ الَّذِي تَطِيرُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَتَنْقَطِعُ فِيهِ الْحُجَجُ لِعِزَّةِ مَلِكٍ قَهَرَهُمْ جَبَرُوتُهُ، وَالْخَلْقُ لَهُ دَاخِرُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ، يَنْتَظِرُونَ قَضَاءَهُ وَيَخَافُونَ عُقُوبَتَهُ وَكَأَنَّ ذَلِكَ قَدْ كَانَ. فَكَفَى بِالْحَسْرَةِ وَالنَّدَامَةِ يَوْمَئِذٍ فِي ذَلِكَ الْمَوْقِفِ الْعَظِيمِ لِمَنْ عَلِمَ وَلَمْ يَعْمَلْ، يَوْمَ تَزِلُّ فِيهِ الأَقْدَامُ وتتغير فِيهِ الألوان، ويطاول فِيهِ الْقِيَامُ، وَيَشْتَدُّ فِيهِ الْحِسَابُ. يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كِتَابِهِ: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الْحَج: 47] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: 38] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الدُّخان: 40] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الْأَحْقَاف: 35] وَقَالَ: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: 46] فيا لَهَا مِنْ عَثْرَةٍ لَا تُقَالُ (لا تُرفع)، وَيَا لَهَا مِنْ نَدَامَةٍ لَا تَنْفَعُ.

– إِنَّمَا هـوَ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، يُبْلِيَانِ كُلَّ جَدِيدٍ، وَيُقَرِّبَانِ كُلَّ بَعِيدٍ، وَيَأْتِيَانِ بِكُلِّ مَوْعُودٍ، وَيَجْزِي اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ؛ فَاللَّهَ اللَّهَ فَإِنَّ الْبَقَاءَ قَلِيلٌ وَالْخَطْبُ خَطِيرٌ وَالدُّنْيَا هـالِكَةٌ وَهَالِكٌ مَنْ فِيهَا، وَالآخِرَةُ هـيَ دَارُ الْقَرَارِ. فَلا تَلْقَ اللَّهَ غَدًا وَأَنْتَ سَالِكٌ سَبِيلَ الْمُعْتَدِينَ فَإِنَّ دَيَّانَ يَوْمِ الدِّينِ إِنَّمَا يَدِينُ الْعِبَادَ بأعمالهم وَلَا يدين بمنازلهم. وَقد حذرتك اللَّهَ فَاحْذَرْ، فَإِنَّكَ لَمْ تُخْلَقْ عَبَثًا، وَلَنْ تُتْرَكَ سُدًى. وَإِنَّ اللَّهَ سَائِلُكَ عَمَّا أَنْتَ فِيهِ وَعَمَّا عَمِلْتَ بِهِ، فَانْظُرْ مَا الْجَواب.

– وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَنْ تَزُولَ غَدًا قَدَمَا عَبْدٍ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إلا مِنْ بَعْدِ الْمَسْأَلَةِ فَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَن أَربع: عَن علمه مَا عَمِلَ فِيهِ، وَعَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جَسَدِهِ فِيمَ أَبْلاهُ»؟ فَاعْدِدْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لِلْمَسْأَلَةِ جَوَابَهَا فَإِنَّ مَا عَمِلْتَ فَأَثْبَتَّ فَهُوَ عَلَيْكَ غَدًا يُقْرَأُ، فَاذْكُرْ كَشْفَ قِنَاعِكَ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ فِي مَجْمَعِ الأَشْهَادِ.

– وَإِنِّي أُوصِيكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِحِفْظِ مَا اسْتَحْفَظَكَ اللَّهُ وَرِعَايَةِ مَا اسْتَرْعَاكَ اللَّهُ، وَأَنْ لَا تَنْظُرَ فِي ذَلِكَ إلا إِلَيْهِ وَلَهُ؛ فَإِنَّكَ إِنْ لَا تَفْعَلْ تَتَوَعَّرْ عَلَيْكَ سُهُولَةُ الْهُدَى، وَتَعْمَى فِي عَيْنِكَ وَتَتَعَفَّى رُسُومُهُ وَيَضِيقُ عَلَيْكَ رَحْبُهُ وَتُنْكِرُ مِنْهُ مَا تَعْرِفُ وَتَعْرِفُ مِنْهُ مَا تُنْكِرُ، فَخَاصِمْ نَفْسَكَ خُصُومَةَ مَنْ يُرِيدُ الْفَلَجَ (أَي الظَّفر) لَهَا لَا عَلَيْهَا؛ فَإِنَّ الرَّاعِيَ الْمُضَيِّعَ يَضْمَنُ مَاهـلَكَ عَلَى يَدَيْهِ مِمَّا لَوْ شَاءَ رَدَّهُ عَنْ أَمَاكِنِ الْهَلَكَةِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَوْرَدَهُ أَمَاكِنَ الْحَيَاةِ وَالنَّجَاةِ، فَإِذَا تَرَكَ ذَلِكَ أَضَاعَهُ وَإِنْ تَشَاغَلَ بِغَيْرِهِ كَانَتِ الْهَلَكَةُ عَلَيْهِ أَسْرَعُ وَبِهِ أَضَرُّ، وَإِذَا أَصْلَحَ كَانَ أَسْعَدَ مَنْ هـنَالِكَ بِذَلِكَ وَوَفَّاهُ اللَّهُ أَضْعَافَ مَا وَفَّى لَهُ. فَاحْذَرْ أَنْ تُضَيِّعَ رَعِيَّتَكَ فَيَسْتَوْفِي رَبُّهَا حَقَّهَا مِنْكَ وَيُضَيِّعُكَ – بِمَا أَضَعْتَ – أَجْرَكَ وَإِنَّمَا يُدْعَمُ الْبُنْيَانُ قَبْلَ أَنْ يَنْهَدِمَ.

– وَإِنَّمَا لَكَ مِنْ عَمَلِكَ مَا عَمِلْتَ فِيمَنْ وَلاكَ اللَّهُ أَمْرَهُ وَعَلَيْكَ مَا ضَيَّعْتَ مِنْهُ؛ فَلا تَنْسَ الْقِيَامَ بِأَمْرِ مَنْ ولاك أَمْرَهُ فَلَسْتَ تُنْسَى. وَلا تَغْفَلْ عَنْهُمْ وَعَمَّا يُصْلِحُهُمْ فَلَيْسَ يُغْفَلُ عَنْكَ. وَلا يَضِيعُ حَظُّكَ مِنْ هـذِهِ الدُّنْيَا فِي هـذِهِ الأَيَّام والليالي كَثْرَة تَحْرِيم لِسَانِكَ فِي نَفْسِكَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَسْبِيحًا وَتَهْلِيلا وَتَحْمِيدًا وَالصَّلاةِ عَلَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ وَإِمَامِ الْهُدَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

– وَإِنَّ اللَّهَ بِمَنِّهِ وَرَحْمَتِهِ جَعَلَ وُلاةَ الأَمْرِ خُلَفَاءَ فِي أَرْضِهِ، وَجَعَلَ لَهُم نورًا يضيء لِلرَّعِيَّةِ مَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ مِنَ الأُمُورِ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَيُبَيِّنُ مَا اشْتَبَهَ مِنَ الْحُقُوقِ عَلَيْهِمْ. وَإِضَاءَةُ نُورِ وُلاةِ الأَمْرِ إِقَامَةُ الْحُدُودِ وَرَدُّ الْحُقُوقِ إِلَى أَهْلِهَا بِالتَّثَبُّتِ وَالأَمْرِ الْبَيِّنِ وَإِحْيَاءِ السُّنَنِ

الَّتِي سَنَّهَا الْقَوْمُ الصَّالِحُونَ أَعْظَمُ مَوْقِعًا، فَإِنَّ إِحْيَاءَ السُّنَنِ مِنَ الْخَيْرِ الَّذِي يَحْيَا وَلا يَمُوتُ. وَجَوْرُ الرَّاعِي هلاكٌ لِلرَّعِيَّةِ، وَاسْتِعَانَتُهُ بِغَيْرِ أهل الشقة وَالْخَيْرِ هلاكٌ لِلْعَامَّةِ. فَاسْتَتِمَّ مَا آتَاكَ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ النِّعَمِ بِحُسْنِ مُجَاوَرَتِهَا، وَالْتَمِسِ الزِّيَادَةَ فِيهَا بِالشُّكْرِ عَلَيْهَا؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ: ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إِبْرَاهِيم: 7] . وَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الإِصْلاحِ، وَلا أَبْغَضَ إِلَيْهِ مِنَ الْفَسَادِ وَالْعَمَلُ بِالْمَعَاصِي كُفْرُ النِّعَمِ، وَقَلَّ مَنْ كَفَرَ مِنْ قَوْمٍ قَطُّ النِّعْمَةَ ثُمَّ لَمْ يَفْزَعُوا إِلَى التَّوْبَةِ إِلا سُلِبُوا عِزَّهُمْ وَسَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ.

– وَإِنِّي أَسْأَلُ اللَّهَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِي مَنَّ عَلَيْكَ بِمَعْرِفَتِهِ فِيمَا أَوْلاكَ أَنْ لَا يَكِلَكَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِكَ إِلَى نَفْسِكَ، وَأَنْ يَتَوَلَّى مِنْكَ مَا تَوَلَّى مِنْ أَوْلِيَائِهِ وأحبائه؛ فَإِنَّهُ ولي ذَلِك والمرغبون إِلَيْهِ فِيهِ.

وَقَدْ كَتَبْتُ لَكَ مَا أَمَرْتَ بِهِ وَشَرَحْتُهُ لَكَ وَبَيَّنْتُهُ، فَتَفَقَّهْهُ وَتَدَبَّرْهُ وَرَدِّدْ قِرَاءَتَهُ حَتَّى تَحْفَظَهُ، فَإِنِّي قَدِ اجْتَهَدْتُ لَكَ فِي ذَلِكَ وَلَمْ آلُكَ وَالْمُسْلِمِينَ نُصْحًا، ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَثَوَابِهِ وَخَوْفَ عِقَابِهِ. وَإِنِّي لأَرْجُو – إِنْ عَمِلْتَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْبَيَانِ – أَنْ يُوَفِّرَ اللَّهُ لَكَ خَرَاجَكَ مِنْ غَيْرِ ظُلْمِ مُسْلِمٍ وَلا مُعَاهَدٍ، وَيُصْلِحَ لَكَ رَعِيَّتَكَ فَإِنَّ صَلاحَهُمْ بِإِقَامَةِ الْحُدُودِ عَلَيْهِمْ وَرَفْعِ الظُّلْمِ عَنْهُمْ وَالتَّظَالُمِ فِيمَا اشْتَبَهَ مِنَ الْحُقُوقِ عَلَيْهِمْ. وَكَتَبْتُ لَكَ أَحَادِيثَ حَسَنَةً، فِيهَا تَرْغِيبٌ وتحضيض مَا سَأَلْتَ عَنْهُ، مِمَّا تُرِيدُ الْعَمَلَ بِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. فَوَفَّقَكَ اللَّهُ لِمَا يُرْضِيهِ عَنْكَ، وَأَصْلح بك، وعلى يَديك»[1].

(1) القاضي أبو يوسف: الخراج، ص13 – 16.

رابعًا: هارون الرشيد
مع الفضيل بن عياض (الزاهد الناصح)

الإمام، القدوة، الثبت، شيخ الإسلام، أبو علي الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمي، الخراساني، المجاور بحرم الله (ت: 187هـ). ولد: بسمرقند، ونشأ بأبيورد (كورة أبي ورد)، كان في أول أمره لصًّا يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس، وكان سبب توبته أنه عشق جارية فبينا هو يرتقي الجدران إليها سمع تاليًا يتلو: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: 16]، فقال: يا رب قد آن، فرجع، وآواه الليل إلى خربة فإذا فيها رفقة، فقال بعضهم: نرتحل، وقال بعضهم: حتى نصبح، فإن فضيلًا على الطريق يقطع علينا، قال: ففكرت، وقلت: أنا أسعى بالليل في المعاصي، وقوم من المسلمين هـا هـنا يخافوني، وما أرى الله ساقني إليهم إلا لأرتدع، اللهم إني قد تبت إليك، وجعلت توبتي مجاورة البيت الحرام.

وارتحل في طلب العلم، وحدَّث عن منصور بن المعتمر، وبيان بن بشر، وعطاء بن السائب، ويحيى بن سعيد الأنصاري، وابن أبي ليلى، وجعفر الصادق، وخلق سواهم من الكوفيين والحجازيين. وروى عنه ابن المبارك، ويحيى القطان، والشافعي، وبشر الحافي، وخلق كثير.

قال محمد بن سعد: "قدم الكوفة وهو كبير، فسمع من منصور وغيره، ثم تعبد، وانتقل إلى مكة، ونزلها، إلى أن مات بها في أول سنة سبع وثمانين ومائة، في خلافة هـارون، وكان ثقة، نبيلًا، فاضلًا، عابدًا، ورعًا، كثير الحديث".

وعن الهيثم بن جميل، سمعت شريكًا يقول: "لم يزل لكل قوم حجة في أهل زمانهم، وإن فضيل بن عياض حجة لأهل زمانه". ومن أقوال الفضيل: "ترك العمل

من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله عنهما"، ومن أقواله: "لو أن لي دعوة مستجابة لجعلتها للإمام، لأن به صلاح الرعية، فإذا صلح أمنت العباد والبلاد". وقال: "إِنِّي لَأَعْصِي الله فأعرف ذلك في خلق حماري وخادمي وامرأتي وفأر بيتي".

وكان لأمير المؤمنين هـارون الرشيد علاقة وثيقة بالفضيل بن عياض، وكان الرشيد يزوره في بيته ويستأذن عليه، ويبكي بين يديه، ويشاوره في أمور الخلافة والدولة، وينزل عن رأيه ونصيحته. وكان هـارون يقول: "ما رأيت في العلماء أَهْيَبَ من مالك، ولا أورع من الفضيل". وعن إبراهيم بن سعيد الجوهري، قال: قال لي المأمون: قال لي الرشيد: "ما رأت عيناي مثل فضيل بن عياض، دخلت عليه، فقال لي: فرِّغ قلبك للحزن وللخوف حتى يسكناه، فيقطعاك عن المعاصي، ويباعداك من النار".

وقال محرز بن عون: كنت عند الفضيل، فأتى هـارون ومعه يحيى بن خالد، وولده جعفر، فقال له يحيى: يا أبا علي، هـذا أمير المؤمنين يسلم عليك. قال: أيكم هـو؟ قالوا: هـذا. فقال: يا حسن الوجه، لقد طوقت أمرًا عظيمًا، وكررها. ثم قال: حدثني عبيد المكتب، عن مجاهد في قوله: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: 166]، قال: الأوصال التي كانت في الدنيا، وأومأ بيده إليهم. فجعل هـارون يبكي ويشهق. وقال الرشيد يومًا للفضيل: ما أزهدك! فقال الفضيل: أنت أزهد مني، قال: وكيف ذلك، قال: لأني أزهد في الدنيا، وأنت تزهد في الآخرة، والدنيا فانية والآخرة باقية[1].

ومن أروع المواقف التي ذكرها المؤرخون حول علاقة الرشيد بالفضيل، ما ذكره الفضل بن الربيع، بقوله: حج أمير المؤمنين هـارون فبينا أنا ليلة نائم بمكة إذ سمعت قرع الباب فقلت: من هـذا؟ قال أجب أمير المؤمنين. فخرجت مسرعًا، فقلت: يا أمير

(1) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 4/ 47. الذهبي: سير أعلام النبلاء، 8/ 421 – 442. ابن كثير: البداية والنهاية، 13/ 660 – 662.

المؤمنين لو أرسلت إلي أتيتك. قال: ويحك إنه قد حيك في نفسي شيء، فانظر لي رجلًا أسأله. فقلت:ها هنا سفيان بن عيينة. فقال: امض بنا إليه. فأتيناه، فقرعت عليه الباب، فقال: من هـذا؟، قلت: أجب أمير المؤمنين. فخرج مسرعًا، فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليَّ أتيتك. فقال: خذ لِما جئنا له رحمك الله. فحادثه ساعة، ثم قال: أعليك دين؟. قال: نعم. فقال: يا عباسي، اقض دينه. ثم انصرفنا.

فقال: ما أغنى عني صاحبك شيئًا، فأنظرني رجلًا أسأله. فقلت:ها هنا عبد الرزاق بن هـمام، فقال: امض بنا إليه. فأتيناه، فقرعت عليه الباب. فقال: من هـذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين. فخرج مسرعًا، فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليَّ أتيتك. فقال: خذ لِما جئناك له رحمك الله. فحادثه ساعة ثم قال: عليك دين؟. قال: نعم. قال: يا عباسي اقض دينه. ثم انصرفنا.

فقال ما أغنى عني صاحبك شيئًا، انظر لي رجلًا. فقلت: ها هنا الفضيل بن عياض. فقال: امض بنا إليه. فأتيناه، فإذا هـو قائم يصلي يتلو آية يرددها. فقال لي: اقرع، فقرعت. فقال: من هـذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين. فقال: ما لي ولأمير المؤمنين. فقلت: سبحان الله أو ما عليك طاعة، أو ليس قد روي عن النبي ﷺ أنه قال: "ليس للمؤمن أن يذل نفسه". قال: فنزل ففتح الباب. قال: ثم ارتقى إلى الغرفة، فأطفأ السراج، ثم التجأ إلى زاوية من زوايا الغرفة.

قال: فدخلنا فجعلنا نجول عليه بأيدينا فسبقت يد هـارون إليه، فبكى وقال: أوه من كف ما ألينها، إن نجت غدًا من عذاب الله. قال: قلت في نفسي لنكلمنه الليلة بكلام تقي من قلب تقي. فقال له: خذ لِما جئنا له رحمك الله. فقال الفضيل: "إن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظي ورجاء بن حيوة، فقال لهم: إني قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا عليَّ، فعدَّ الخلافة بلاء، وعددتها أنت وأصحابك نعمة.

فقال له سالم بن عبد الله: إن أردت النجاة غدًا من عذاب الله عز وجل فصم

عن الدنيا وليكن إفطارك فيها الموت.

وقال له محمد بن كعب القرظي: إن أردت النجاة من عذاب الله فليكن كبير المسلمين عندك أبًا وأوسطهم عندك أخًا وصغيرهم عندك ولدًا، فوقر أباك وأكرم أخاك وتحنن على ولدك.

وقال له رجاء بن حيوة: إن أردت النجاة غدًا من عذاب الله. فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك واكره لهم ما تكره لنفسك ثم مت إذا شئت. ثم إني لأقول لك هـذا وإني أخاف عليك أشد الخوف يوم القيامة يوم تزل فيه الأقدام، فهل معك رحمك الله مثل هـؤلاء من يأمرك بمثل هـذا.

قال: فبكى هـارون بكاءً شديدًا حتى غشي عليه. فقلت: ارفق بأمير المؤمنين. فقال يا ابن أم الربيع تقتله أنت وأصحابك وأرفق به أنا. ثم أفاق فقال الرشيد: رحمك الله زدني. فقال: يا أمير المؤمنين بلغني أن عاملًا لعمر بن عبد العزيز شكى إليه، قال فكتب إليه عمر: يا أخي اذكر طول سهر أهل النار في النار مع خلود الأبد، فإن ذلك يطرد بك إلى الرب نائمًا ويقظانًا، وإياك أن ينصرف بك من عند الله فيكون آخر العهد ومنقطع الرجاء. قال فلما قرأ الكتاب طوى البلاد حتى قدم على عمر بن عبد العزيز. فقال له: ما أقدمك. قال: خلعت قلبي بكتابك لا وليت ولاية حتى ألقى الله. قال: فبكى هـارون بكاءً شديدًا.

ثم قال: زدني رحمك الله. فقال: يا أمير المؤمنين إن العباس عم المصطفى ﷺ جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أمرني على إمارة. فقال النبي ﷺ: يا عباس يا عم النبي نفس تحييها خير لك من إمارة لا تحصيها، إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة، فإن استطعت أن لا تكون أميرًا فافعل. قال: فبكى هـارون بكاءً شديدًا. ثم قال له: زدني رحمك الله. فقال: يا حسن الوجه أنت الذي يسألك الله عن هـذا الخلق يوم القيامة فإن استطعت أن تقي هـذا الوجه من النار فافعل. وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لرعيتك فإن النبي ﷺ قال: "من أصبح لهم غاشًّا لم يرح

رائحة الجنة".

قال فبكى هـارون بكاءً شديدًا حتى غشي عليه. ثم قال: عليك دين؟. قال: نعم دين لربي لم يحاسبني عليه فالويل لي إن ساءلني والويل لي إن ناقشني والويل لي إن لم ألهم حجتي. فقال: إنما أعني من دين العباد. قال: فقال: إن ربي لم يأمرني بهذا أمرني أن أصدق وعده وأن أطيع أمره فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ [الذاريات: 56 - 58]، فقال له الرشيد: هـذه ألف دينار خذها فأنفقها على عيالك وتقوَّ بها على عبادة ربك. فقال: سبحان الله أنا أدلك على النجاة وتكافئني بمثل هـذا، سلمك الله ووفقك.

ثم صمت فلم يكلمنا فخرجنا من عنده، فلما صرنا على الباب، قال لي هـارون: يا عباسي إذا دللتني على رجل، فدلني على مثل هـذا،هـذا أزهد المسلمين اليوم.

فدخلت عليه امرأة من نسائه، فقالت: يا هـذا قد ترى ما نحن فيه من ضيق الحال، فلو قبلت هـذا المال فتفرحنا به.

فقال لها: مثلي ومثلكم كمثل قوم كان لهم بعير يأكلون من كسبه، فلما كبر نحروه فأكلوا لحمه.

فلما سمع هـارون هـذا الكلام، قال: ندخل فعسى أن يقبل المال. فلما علم الفضيل خرج فجلس في السطح على باب الغرفة، فجاء هـارون الرشيد فجلس إلى جنبه، فجعل يكلمه فلا يجيبه فبينا نحن كذلك إذ خرجت جارية سوداء، فقالت: يا هـذا قد آذيت الشيخ منذ الليلة، فانصرف رحمك الله، فانصرفنا.[1].

ويحكي الفضيل موقفًا عظيمًا له مع الرشيد، يقول: "لما قدم هـارون الرشيد إلى مكة قعد في الحِجر هـو وولده وقوم معه من الهاشميين، وبعثوا إلى المشايخ فأحضروهم عنده، وبعثوا إليَّ، فأردت أن لا أذهب، واستشرت جارًا لي، فقال لي:

(1) ابن الجوزي: صفة الصفوة، 1/ 430 - 433. ابن عساكر: تاريخ دمشق، 48/ 437 - 440.

يا أبا علي لا تفعل، اذهب لعله إنما يريد أن تحدثه بشيء، أو تعظه بشيء. قال: فذهبت فجئت فدخلت المسجد، فلما صرت إلى الحِجر إذا هـم قعود، فقلت لأدناهم إليَّ رجلًا: أيهم أمير المؤمنين، فأشار لي إليه. فأقبلت عليه، فقلت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. قال: فرد عليَّ، وقال: اقعد، ثم قال لي: أما إنا ما دعوناك لشيء تكره ولكن حدثنا بشيء، عظنا. قال: فأقبلت عليه، فقلت له: يا حسن الوجه حساب الخلق كلهم عليك. قال: فجعل يبكي ويشهق. قال: فرددت عليه، يا حسن الوجه حساب الخلق كلهم عليك. قال: فجعل يبكي، حتى جاء الخادم، فحملوني فأخرجوني من الحِجر، وقالوا: اذهب بسلام"[1].

وأخرج الخطيب البغدادي في تاريخه بسنده عن عبد الرزاق بن هـمام الصنعاني قال: كنتُ مَعَ الفُضَيْل بمكة، فمرَّ هـارون، فقال فُضَيْل: "النّاسُ يكرهون هـذا، وما في الأرض أعز عليَّ منه، لو مات لرأيت أمورًا عظامًا". وبسنده أيضًا عن يحيى بن أبي طالب، قَالَ: حَدَّثَنَا عثمان بن كثير الواسطي، قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول: "ما من نفس تَموت أشد علي موتًا من هـارون أمير المؤمنين"، قال: وددت أنه، أو قال: "ولوددت أن الله، زاد في عمره من عمري"، قال: فكبر ذلك علينا، فلما مات هـارون، وظهرت تلك الفتن، وكان من المأمون ما حَمل الناس على قول القرآن مَخلوق، قلنا: الشيخ كان أعلم بِما تكلم به[2].

(1) ابن عساكر: تاريخ دمشق، 48/ 436.

(2) انظر أخبار الرشيد مع الفضيل في: الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 16/ 13 - 18. الذهبي: تاريخ الإسلام، 4/ 1223 - 1225.

خامسًا: هارون الرشيد
مع الإمام الشافعي (مجدد الإسلام)

الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس الشافعي المُطَّلِبِيُّ (150هـ - 204هـ)، عالم العصر، ناصر الحديث، إمام الدين والدنيا، مجدد الإسلام عل رأس المائة الثانية، اتفق مولد الإمام بغزة، ومات أبوه إدريس شابًا، فنشأ محمد يتيمًا في حجر أمه، فخافت عليه الضيعة، فتحولت به إلى محتده وهو ابن عامين، فنشأ بمكة، وأقبل على الرمي، حتى فاق فيه الأقران، وصار يصيب من عشرة أسهم تسعة، ثم أقبل على العربية والشرع، فبرع في ذلك وتقدَّم. ثم حبب إليه الفقه، فساد أهل زمانه. وأخذ العلم بمكة عن مسلم بن خالد الزنجي مفتي مكة، وسفيان بن عيينة، وفضيل بن عياض، وغيرهم، وارتحل وهو ابن نيف وعشرين سنة، وقد أفتى وتأهل للإمامة إلى المدينة، فحمل عن مالك بن أنس (الموطأ)، عرضه من حفظه. وأخذ باليمن عن مطرف بن مازن، وطائفة. وببغداد عن محمد بن الحسن، فقيه العراق، ولازمه. وصنف التصانيف، ودوَّن العلم، ورد على الأئمة متبعًا الأثر، وصنف في أصول الفقه وفروعه، وبَعُد صيته، وتكاثر عليه الطلبة. من أشهر تصانيفه: الأم، والرسالة، والمسند، واختلاف الحديث، وغيرها كثير.

نظر إليه سفيان بن عيينة مرة، فقال: "هَذَا أَفْضَلُ فِتْيَانِ أَهْلِ زَمَانِهِ"، وقال له شيخه مسلم بن خالد الزنجي: "قَدْ آنَ لَكَ أَنْ تُفْتِيَ"، وهو ابن خمس عشرة سنة. وقال أحمد بن حنبل: "ما أحد مس محبرة ولا قلمًا إلا وللشافعي في عنقه مِنَّة". وعنه أيضًا: "يقيض للنَّاس فِي رَأس كل مائَة سنة من يعلمهُمْ السّنَن وينفي عَن رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم الْكَذِب، فَنَظَرْنَا فَإِذا فِي رَأس الْمِائَة عمر بن عبد الْعَزِيز، وَفِي رَأس الْمِائَتَيْنِ

الشَّافِعِي". وقال الأصمعي: "أخذت شعر هـذيل عن الشافعي".

وقد قدم الشافعي بغداد سنة أربع وثمانين ومائة، ولازم محمد بن الحسن مدة، ولم يلق أبا يوسف القاضي، مات قبل قدوم الشافعي. وقال الإمام سحنون: "لم يكن في الشافعي بدعة". وصدق والله، فرحم الله الشافعي، وأين مثل الشافعي والله في صدقه، وشرفه، ونبله، وسعة علمه، وفرط ذكائه، ونصره للحق، وكثرة مناقبه رحمه الله[1].

كان أول دخول الإمام الشافعي بغداد سنة 184هـ مقيدًا بالحديد؛ ليمثل أمام هـارون الرشيد، وقد اختلفوا في سبب ذلك، فقد روى ابن كثير عن ابن أبي حاتم بسنده عن الشافعي: أنه ولي الحُكْمَ بنجران من أرض اليمن، ثُمَّ تعصبوا عليه ووشوا به إلى الرشيد أنه يروم الخلافة، فَحُمِلَ على بغل فِي قيد إلى بغداد، فدخلها في سنة أربع وثمانين ومائة، فاجتمع بالرشيد فتناظر هـو ومحمد بن الحسن بين يدي الرشيد، وأحسن القول فيه محمد بن الحسن، وَتَبَيَّنَ للرشيد بَرَاءَتَهُ مما نسب إليه، وأنزله محمد بن الحسن عنده[2].

وهناك رواية أخرى أن مصعب بن عبد الله قال للشافعي: "إن هـارون الرشيد كتب إليَّ أن أصير إلى اليمن قاضيًا (بدلًا من مطرف بن مازن قاضي اليمن) فتخرج معنا"، فخرج الشافعي معه، فكان من أمر الشافعي أن جالس الناس، وصار فيهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى علا نجمه، فوشى إليه مطرف بن مازن، وكتب إلى الرشيد: " إن أردت اليمن لا يفسد عليك ولا يخرج من يديك، فأخرج عنه محمد بن إدريس، وذكر أقوامًا من الطالبيين». ووصف الشافعي بأنه «يعمل بلسانه ما لا يقدر عليه المقاتل بسيفه»، فأمر الرشيد عامله على اليمن حماد البربري

(1) ابن عبد البر: الانتقاء في فضائل الثلاثة (أبو حنيفة ومالك والشافعي)، ص66 – 71. الذهبي: سير أعلام النبلاء، 10/ 5 – 99. بتصرف.

(2) ابن كثير: البداية والنهاية، 14/ 133.

بإحضار الشافعي ومن معه من الطالبيين، فأوثقوا بالحديد، وأمر بمحاكمتهم جميعًا بحضور قاضي القضاة محمد بن الحسن. وكان صديقًا للشافعي وأحد الذين جالسوه في العلم وأخذوا عنه، فلما بلغه أن الشافعي في القوم الذين أخذوا وَاتُّهِمُوا بالطعن على الرشيد، والسعي عليه، اغتم لذلك غمًا شديدًا، وراعى وقت دخولهم على الرشيد.

فلما مثَّلوا بين يدي الرشيد أقرَّ الطالبيون بثورتهم ضد الخلافة العباسية، فأعدموا، ولم يبق إلا حَدَثٌ علوي والشافعي، فقال الرشيد للعلوي: «أأنت الخارج علينا والزاعم أني لا أصلح للخلافة؟» فقال العلوي: «أعوذ بالله أن أدعي ذلك أو أقوله». فأمر الرشيد بضرب عنقه. فقال له العلوي: «إن كان لابد من قتلي، فأنظرني أكتب إلى أمي بالمدينة فهي عجوز لم تعلم بخبري». فأمر بقتله فقتل. ثم قدم الشافعي، ومحمد بن الحسن جالس مع الرشيد، فقال الرشيد مثل ما قال للفتى، فقال الشافعي: «يا أمير المؤمنين لست بطالبي ولا علوي، وإنما دخلت في القوم بغيًا عليَّ، وإنما أنا رجل من بني المطلب بن عبد مناف من قصي، ولي مع ذلك حظ من العلم والفقه والقاضي يعرف ذلك، أنا محمد بن إدريس بن العباس ..» .

فقال الرشيد: «أنت محمد بن إدريس؟» قال: «نعم يا أمير المؤمنين». قال: «ما ذكرك لي محمد بن الحسن». ثم عطف على محمد بن الحسن فقال: «يا محمد، ما يقول هـذا هـو كما يقوله؟» قال: «نعم وله من العلم محل كبير وليس الذي رفع عليه من شأنه». قال: «فخذه إليك حتى أنظر في أمره». قال الشافعي: «فأخذني محمد وكان سبب خلاصي لما أراد الله عز وجل منه». فبرَّت ساحة الشافعي مما نسب إليه، ولازم محمد بن الحسن وكتب عنه وقر بعير[1].

والأرجح من تلك الروايات ما أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في الحلية أن الشافعي لما رحل إلى اليمن، خرج بها أحد الخوارج على هـارون الرشيد، فشنَّع

(1) ابن عبد البر: الانتقاء في فضائل الثلاثة (أبو حنيفة ومالك والشافعي)، ص97 – 98.

عليه الشافعي وطعن عليه وأعرض عمن ساعده، ورفع من قعد عنه، فبلغ ذلك الخارجي ما يقول فيه فبعث إليه، فأحضره عنده وهمَّ بقتله، فلما سمع كلامه، وتبين له شرفه، وفضله وعفته عفا عنه، ثُمَّ أَشْخَصَ هـارون جيشه إلى ذلك الْخَارِجِيِّ، فقبض عليه وَحُمِلَ إِلَى هـارون، وَحُمِلَ مَعَهُ الشَّافِعِيُّ، وَأُحْضِرَا جَمِيعًا بَيْنَ يَدَيِ الرَّشِيدِ فَأَمَرَ بِقَتْلِهِمَا، فقال له الشافعي: «يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ: إِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَسْمَعَ كَلَامِي، وَتَجْعَلُ عُقُوبَتَكَ مِنْ وَرَاءِ لِسَانِي، ثُمَّ تَضُمَّنِي بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى مَا يَلِيقُ لِي مِنَ الشِّدَّةِ أَوِ الرَّخَاءِ»، فقال له: «هَاتِ». فَبَيَّنَ له القصة وَعَرَّفَهُ شرفه، وذكر له كلامًا اسْتَحْسَنَهُ هـارون، وأمره الرشيد أن يعيده عليه، فأعاد تلك المعاني بألفاظ أعذب منها. فقال له هـارون: «كَثَّرَ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي مِثْلَكَ»، وكان محمد بن الحسن حاضرًا، فَلَمْ يَقْصُرْ وَخَلَّى له السبيل، وسأله محمد بن الحسن، فنزل عليه أيامًا، ثُمَّ سأله الشافعي أن يمكِّنه من كتبه، وكتب أبي حنيفة، فأجابه[1].

ومنذ ذلك الحين علت شهرة الشافعي في بغداد، وتكررت اللقاءات بينه وبين هـارون، وكان الرشيد إذا أراد لقاء الشافعي يقول لحاجبه الفضل بن الربيع: «عَلَيَّ بِهَذَا الْحِجَازِيِّ». وكان هـارون يحب أن تعقد المناظرات العلمية والفقهية بحضرته، فدعا الشافعي مرة لمناظرة بينه وبين محمد بن الحسن وبشر المريسي، فقال محمد بن الحسن: «هَاتِ مَسْأَلَةً يَا شَافِعِيُّ نَتَكَلَّمُ عَلَيْهَا»، فقال له الشافعي: «سَلُونِي عَمَّا أَحْبَبْتُمْ»، فتجرد بشر، وقال له: «لَوْلَا أَنَّكَ فِي مَجْلِسِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَطَاعَتُهُ فَرْضٌ، لَنُنْزِلَنَّ بِكَ مَا تَسْتَحِقُّهُ، فَلَيْسَ أَنْتَ فِي كَنَفِ الْعُمُرِ وَلَا أَنْتَ فِي ذِمَّةِ الْعِلْمِ فَيَلِيقُ بِكَ هـذَا». فقال له الشافعي: «عَضَّ مَا أَنْتَ». وذا بلغة أهل اليمن، فأنشأ يقول:

أَهَابُكَ يَا عَمْرُو مَا هـبْتَنِي ... وَخَافَ بُشْرَاكَ إِذْ هـبْتَنِي

وَتَزْعُمُ أُمِّي عَنْ أَبِيهِ ... مِنَ أَوْلَادِ حَامَ بِهَا عِبْتَنِي

(1) أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 9/ 81.

فأجابه الشافعي، وهو يقول:

وَمَنْ هـابَ الرِّجَالَ تَهَيَّبُوهُ وَمَنْ حَقَرَ الرِّجَالَ فَلَنْ يَهَابَا

وَمَنْ قَضَتِ الرِّجَالُ لَهُ حُقُوقًا وَلَمْ يَعْصَ الرِّجَالَ فَمَا أَصَابَا

فأجابه بشر، وهو يقول:

هَذَا أَوَانُ الْحَرْبِ فَاشْتَدِّي زِيَمْ

فأجابه الشافعي، وهو يقول:

سَيعْلَمُ مَا يُرِيدُ إِذَا الْتَقَيْنَا بِشَطِّ الرَّابِ أَيَّ فَتًى أَكُونُ

فقال بشر: «يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ دَعْنِي وَإِيَّاهُ». فقال له هـارون: «شَأْنَكَ وَإِيَّاهُ». وجرت بينهم مسائل كثيرة، أجاب عليها الشافعي إجابات تدل على سعة علمه وفقهه، فقال له هـارون الرشيد: «أَنَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْتَ الْقُدْوَةُ، فَلَا يَدْخُلْ عَلَيَّ أَحَدٌ مِنَ الْفُقَهَاءِ قَبْلَكَ». وأمر له الرشيد بخمسين ألف درهم، فانصرف الشافعي إلى بيته، وليس معه شيء، قَدْ تصدق بجميع ذلك، ووصل به الناس[1].

وأَمَرَ الرشيد للشافعي مرةً بألف دينار، فَقَبِلَهَا، فأمر الرشيد خادمه سراجًا باتباعهِ، فما زال الشافعي يفرقها قبضة قبضة، حتى انتهى إلى خارج الدار، وما معه إلا قبضة واحدة، فدفعها إلى غلامه، وقال: «انْتَفِعْ بِهَا». فأخبر سراج الرشيد، بذلك، فقال: «لِهَذَا فَرَغَ هـمُّهُ، وَقَوِيَ مَتْنُهُ»[2].

وأخرج ابن أبي حاتم الرازي بسنده عن الشافعي، قال: خرج هـرثمة فأقرأني سلام أمير المؤمنين هـارون الرشيد، وقال: قد أمر لك بخمسة آلاف دينار. قال: فحُمل إليه المال، فدعا بِحَجَّامٍ فأخذ من شعره وأعطاه خمسين دينارًا، ثم أخذ رِقَاعًا وَصَرَّ من تلك الدنانير صُرَرًا، ففرقها في القرشيين الذين هـم بالحضرة، ومن

(1) أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 9/ 82 – 84.

(2) السابق، 9/ 131.

هـم بمكة، حتى ما رجع إلى بيته إلا بأقل من مائة دينارٍ[1].

ودخل الشافعي يومًا إلى بعض حجر هـارون الرشيد ليستأذن له، ومعه سراج الخادم، فأقعده عند أبي عبد الصمد مؤدب أولاد هـارون الرشيد. فقال سراج للشافعي يا أبا عبد الله هـؤلاء أولاد أمير المؤمنين وهذا مؤدبهم فلو أوصيته بهم، فأقبل الشافعي على أبي عبد الصمد فقال له: «لِيَكُنْ أَوَّلُ مَا تَبْدَأُ بِهِ مِنْ إِصْلَاحِ أَوْلَادِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِصْلَاحُ نَفْسِكَ؛ فَإِنَّ أَعْيُنَهُمْ مَعْقُودَةٌ بِعَيْنِكَ، فَالْحَسَنُ عِنْدَهُمْ مَا تَسْتَحْسِنُهُ وَالْقَبِيحُ عِنْدَهُمْ مَا تَرَكْتَهُ. عَلِّمْهُمْ كِتَابَ اللَّهِ، وَلَا تُكْرِهْهُمْ عَلَيْهِ فَيَمَلُّوهُ، وَلَا تَتْرُكَهُمْ مِنْهُ فَيَهْجُرُوهُ، ثُمَّ رَوِّهِمْ مِنَ الشِّعْرِ أَعَفَّهُ، وَمَنَ الْحَدِيثِ أَشْرَفَهُ، وَلَا تُخْرِجَنَّهُمْ مِنْ عِلْمٍ إِلَى غَيْرِهِ حَتَّى يُحْكِمُوهُ، فَإِنَّ ازْدِحَامَ الْكَلَامِ فِي السَّمْعِ مَضِلَّةٌ لِلْفَهْمِ»[2].

وبعث هـارون الرشيد للشافعي يومًا، فجعل يسأله في اللغة والفقه وعلوم العربية، والشافعي يجيبه بما يشفي صدره ويقرُّ عينه، فقال له: «يَا شَافِعِيُّ، لَوْلَا أَنَّكَ مِنْ قُرَيْشٍ لَقُلْتُ: إِنَّكَ مِمَّنْ لِينَ لَهُ الْحَدِيدُ، فَهَلْ مِنْ مَوْعِظَةٍ؟»، فقال الشافعي: «إِنَّكَ تَخْلَعُ رِدَاءَ الْكِبْرِ عَنْ عَاتِقِكَ، وَتَضَعُ تَاجَ الْهَيْبَةِ عَنْ رَأْسِكَ، وَتَنْزِعُ قَمِيصَ التَّجَبُّرِ عَنْ جَسَدِكَ، وَتُفَتِّشُ نَفْسَكَ، وَتَنْشُرُ سِرَّكَ، وَتُلْقِي جِلْبَابَ الْحَيَاءِ عَنْ وَجْهِكَ، مُسْتَكِينًا بَيْنَ يَدَيْ رَبِّكَ. وَأَكُونُ وَاعِظًا لَكَ عَنِ الْحَقِّ، وَتَكُونُ مُسْتَمِعًا بِحُسْنِ الْقَبُولِ؛ فَيَنْفَعَنِي اللَّهُ بِمَا أَقُولُ، وَيَنْفَعُكَ بِمَا تَسْمَعُ».

فقال له الرشيد: «أَمَا إِنِّي قَدْ فَعَلْتُ وَسَمِعْتُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ، وَلِلْوَاعِظِينَ بَعْدَهُمَا، فَعِظْ وَأَوْجِزْ». فحل الشافعي عنه إزاره، وحسر عن ذراعيه، وقال: «يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ امْتَحَنَكَ بِالنِّعَمِ، وَابْتَلَاكَ بِالشُّكْرِ فَفَضْلُ النِّعْمَةِ أَحْسَنُ لِتَسْتَغْرِقَ بِقَلِيلِهَا كَثِيرًا مِنْ شُكْرِكَ، فَكُنْ لِلَّهِ تَعَالَى شَاكِرًا، وَلِآلَائِهِ ذَاكِرًا، تَسْتَحِقَّ مِنْهُ الْمَزِيدَ. وَاتَّقِ اللَّهَ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، تَسْتَكْمِلِ الطَّاعَةَ، وَاسْمَعْ لِقَائِلِ الْحَقِّ وَإِنْ كَانَ دُونَكَ

(1) ابن أبي حاتم: مناقب الشافعي، ص95 - 96.

(2) السابق، 9/ 147.

تَشْرُفْ عِنْدَ اللَّهِ، وَتَزِدْ فِي عَيْنِ رَعِيَّتِكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَفْتِشُ سِرَّكَ، فَإِنْ وَجَدَهُ بِخِلَافِ عَلَانِيَتِكَ شَغَلَكَ بِهَمِّ الدُّنْيَا، وَفَتَقَ لَكَ مَا يَزْنِقُ عَلَيْكَ، وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حُمَيْدٌ، وَإِنْ وَجَدَهُ مُوَافِقًا لِعَلَانِيَتِكَ أَحَبَّكَ، وَصَرَفَ هَمَّ الدُّنْيَا عَنْ قَلْبِكَ، وَكَفَاكَ مَؤُونَةَ نَظَرِكَ لِغَيْرِكَ، وَتَرَكَ لَكَ نَظَرَكَ لِنَفْسِكَ، وَكَانَ الْمُقَوِّيَ لِسِيَاسَتِكَ. وَلَنْ تُطَاعَ إِلَّا بِطَاعَتِكَ لِلَّهِ تَعَالَى، فَكُنْ طَائِعًا تَكْتَسِبْ بِذَلِكَ السَّلَامَةَ فِي الْعَاجِلِ وَحُسْنَ الْمُنْقَلَبِ فِي الآجِلِ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: 128]، وَاحْذَرِ اللَّهَ حَذَرَ عَبْدٍ عَلِمَ مَكَانَ عَدُوِّهِ، وَغَابَ عَنْهُ وَلِيُّهُ، فَتَيَقَّظَ خَوْفَ السُّرَى، لَا تَأْمَنْ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ لِتَوَاتُرِ نِعَمِهِ عَلَيْكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ مَفْسَدَةٌ لَكَ، وَذَهَابٌ لِدِينِكَ، وَأَسْقِطِ الْمَهَابَةَ فِي الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَعَلَيْكَ بِكِتَابِ اللَّهِ الَّذِي لَا يَضِلُّ الْمُسْتَرْشِدُ بِهِ، وَلَنْ تُهْلَكَ مَا تَمَسَّكْتَ بِهِ، فَاعْتَصِمْ بِاللَّهِ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، وَعَلَيْكَ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَكُنْ عَلَى طَرِيقَةِ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ، فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِ وَمَا نَصَبَ الْخُلَفَاءُ الْمَهْدِيُّونَ فِي الْخَرَاجِ وَالْأَرَضِينَ وَالسَّوَادِ وَالْمَسَاكِنِ وَالدِّيَارَاتِ فَكُنْ لَهُمْ تَبَعًا، وَبِهِ عَامِلًا رَاضِيًا مُسَلِّمًا وَاحْذَرِ التَّلْبِيسَ فِيهِ، فَإِنَّكَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِكَ، وَعَلَيْكَ بِالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ فَاقْبَلْ مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَتَجَاوَزْ عَنْ مُسِيئِهِمْ، وَآتِهِمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي أَتَاكَ، وَلَا تُكْرِهْهُمْ عَلَى إِمْسَاكٍ عَنْ حَقٍّ، وَلَا عَلَى خَوْضٍ فِي بَاطِلٍ فَإِنَّهُمُ الَّذِينَ مَكَّنُوا لَكَ الْبِلَادَ وَاسْتَخْلَصُوا لَكَ الْعِبَادَ وَنَوَّرُوا لَكَ الظُّلْمَةَ وَكَشَفُوا عَنْكَ الْغُمَّةَ، وَمَكَّنُوا لَكَ فِي الْأَرْضِ، وَعَرَّفُوكَ السِّيَاسَةَ، وَقَلَّدُوكَ الرِّيَاسَةَ، فَنَهَضْتَ بِثِقْلِهَا بَعْدَ ضَعْفٍ، وَقَوِيتَ عَلَيْهَا بَعْدَ فَشَلٍ، كُلَّ ذَلِكَ يَرْجُوكَ مَنْ كَانَ مِنْ أَمْثَالِهِمْ لِعِفَّتِهِمْ، طَمَعَ الزِّيَادَةِ لَهُمْ؛ فَلَا تُطِعِ الْخَاصَّةَ تَقَرُّبًا إِلَيْهِمْ بِظُلْمِ الْعَامَّةِ، وَلَا تُطِعِ الْعَامَّةَ تَقَرُّبًا إِلَيْهِمْ بِظُلْمِ الْخَاصَّةِ؛ لِتَسْتَدِيمَ السَّلَامَةُ، وَكُنْ لِلَّهِ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يَكُونَ لَكَ أَوْلِيَاؤُكَ مِنَ الْعَامَّةِ مِنَ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ؛ فَإِنَّهُ مَا وُلِّيَ أَحَدٌ عَلَى عَشَرَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَلَمْ يُحِطْهُمْ بِنَصِيحَةٍ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَدُهُ مَغْلُولَةٌ إِلَى عُنُقِهِ لَا يَفُكُّهَا إِلَّا عَدْلُهُ، وَأَنْتَ أَعْرَفُ بِنَفْسِكَ».

فبكى الرشيد - وقد كان في خلال هذه الموعظة يبكي لا يسمع له صوت -

فلما بلغ إلى هـذا الفصل بكى الرشيد وعلا نحيبه وبكى جلساؤه، فقال الوالي: «يَا هـذَا الرَّجُلَ، احْبِسْ لِسَانَكَ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَدْ قَطَعْتَ قَلْبَهُ حُزْنًا»، وقال محمد بن الحسن وهو قائم على قدمه: «اغْمِدْ لِسَانَكَ يَا شَافِعِيُّ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّهُ أَمْضَى مِنْ سَيْفِكَ»، والرشيد يبكي لا يفيق. فأقبل الشافعي على محمد والجماعة فقال: «اسْكُتُوا أَخْرَسَكُمُ اللَّهُ، لَا تَذْهَبُوا بِنُورِ الْحِكْمَةِ يَا مَعْشَرَ عُبَيْدِ الرِّعَاعِ، وَعُبَيْدِ السَّوْطِ وَالْعَصَا، أَخَذَ اللَّهُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْكُمْ لِتَلْبِيسِكُمُ الْحَقَّ عَلَيْهِ، وَهُوَ يَرِثُكُمُ الْمَلِكَ لَدَيْهِ، أَمَا وَاللَّهِ مَا زَالَتِ الْخِلَافَةُ بِخَيْرٍ مَا صُرِفَ عَنْهَا أَمْثَالُكُمْ، وَلَنْ تَزَالَ بِشَرٍّ مَا اعْتَصَمَتْ بِكُمْ».

فرفع الرشيد رأسه وأشار إليهم أن كُفُّوا، وأقبل عليَّ بسيف، فقال: «خُذْ هـذَا الْكَهْلَ إِلَيْكَ، وَلَا تَحُلَّنِي مِنْهُ». ثم أقبل على الشافعي، فقال: «قَدْ أَمَرْتُ لَكَ بِصِلَةٍ فَرَأْيُكَ فِي قَبُولِهَا مُوقَفٌ». فقال له الشافعي: «كَلَّا، وَاللَّهِ لَا يَرَانِي اللَّهُ تَعَالَى قَدْ سَوَّدْتُ وَجْهَ مَوْعِظَتِي بِقَبُولِ الْجَزَاءِ عَلَيْهَا، وَلَقَدْ عَاهَدْتُ اللَّهَ عَهْدًا أَنِّي لَا أُخَالِطُ بِمَلِكٍ مِنَ الْمُلُوكِ تَكَبُّرَ فِي نَفْسِهِ وَتَصَغُّرَ عِنْدَ رَبِّهِ إِلَّا ذَكَرْتُ اللَّهَ تَعَالَى، لَعَلَّهُ أَنْ يُحْدِثَ لَهُ ذِكْرًا». ثم إن الشافعي بعد ذلك دخل على الرشيد فأمر له بألف دينار فقبلها، فضحك الرشيد، وقال: «لِلَّهِ دَرُّكَ مَا أَفْطَنَكَ؟ قَاتَلَ اللَّهُ عَدُوَّكَ فَقَدْ أَصْبَحَ لَكَ وَلِيًّا»[1].

خلاصة القول

أن هـؤلاء كانوا أعلام بطانة هـارون الرشيد رحمه الله، ومن تشكَّلت بهم شخصيته وملامح خلافته، دفعًا لما افتراه الكاذبون عليه، وما توهَّمه الكثيرون أن حياته كانت مليئة بالمجون والخلاعة واللهو والموسيقى والرقص والغناء، على نحو ما نقرأه في حكايات ألف ليلة وليلة وما سار على منوالها. كانت هـذه البطانة الصالحة لأعلام السلف في العلم والفقه والدين، خير دليل على صلاح سيرة الرشيد وحسن سياسته، وعنايته بتطبيق الشرع وتحكيم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ونحن لا ندَّعي للرشيد العصمة، بقدر ما نتحرى في سيرته الصدق والأمانة.

(1) السابق، 9/ 89 - 90.